أوراق . . .

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب

شرعت منذ ساعتين أقلب أوراق فى خزانة كتبى وأرتبها وأمزق ما لا أحتاج إليه . وأنا وأمثالى من الأوراق فى جهاد دائم . إن أغضيت قليلا تراكمت على المكتب والكراسى وكان منظرها همًّا ، والتفكير فيها ألماً ، ونغّصت علينا العمل . فلا بد أن يتعهد الإنسان أوراقه بين الحين والحين وإلا غلبته وتراكمت حوله تراكم الهموم .

وفى طبعى إلف يدعونى إلى الاحتفاظ بأوراق لا غناء فيها ، وكلما طال عليها الزمن ، ويعد العهد بما فيها زادت قرباً إلى نفسى ، وحباً إلى قلبى ، وعزّت علىّ عزة الذكرى القديمة ، والحوادث التى تؤرخ الحياة الماضية .

وقد عثرت — وأنا ماض فى نقد الأوراق وتمزيق بعضها ، وقد غلبنى التعب والملل فهان علىّ تمزيق أوراق ضننت بها زمناً طويلا — على ظرف فيه وريقات شتى فجلست بها أقلبها وأتسلى بذكرياتها . فإذا هذه الوريقات تمثل تقلب الإنسان فى هذه الدنيا بين أعمال مختلفة ، وشواغل شتى . إن جمع بعضها إلى بعض كانت مفارقات مضحكة أو عظات مبكية .

هذه الوريقات فى هذا الظرف الصغير ترجع إلى سفرى إلى تركيا قبل تسع سنوات :

فهذه أبيات فيها كتب تركية فى موضوعات شتى ومعها بيان أثمانها . بين هذه الكتب نسخة عربية مخطوطة من أمثال الميدانى ، ونسخة جليلة من كتاب المثنوى أغلب الظن أنها كانت فى يد العالم الشاعر الصوفى العظيم الشيخ عبد الرحمن الجامى . ذكرتنى هذه الورقة بمجالس لى عند الورّاقين فى حىّ بايزيد من أحياء اسطنبول ، وهو أحب أحيائها إلى نفسى .

وورقة أخرى فيها أسماء أربع عشرة من خزائن الكتب فى هذه المدينة العظيمة اسطنبول وقد دخلتها كلها ونعمت بالقراءة والبحث عن الكتب القيمة فيها .

وأوراق أخرى من هذا الضرب الذى شغلنا فى السفر والحضر واليقظة والنوم .

وورقة فيها قطع من الشعر التركى خطها أديب عالم تركى ظفرت بصحبته فى تلك الرحلة هو المرحوم فريد بك . وكان رحمه الله متشائماً كثير السخرية .

ومن هذه الأبيات وأحسبها من نظمه :

كچدى دنيـــادن آدا ملق دوره مى
اعتماد إيت كل بد قول راجـــح
شمـــدى حيوانلقده درفيض ورواج
روح إنسانية الفاتحـــة

وترجمتها :

مضى من الدنيا دور الإنسانية . اعتمد على هذا القول الراجح والحيوانية الآن فى فيض ورواج . فلروح الإنسانية الفاتحة .

وبعدها ورقة فيها بيان بكتب مخطوطة قديمة عملاً رأيتها عند واحد من ولاة الترك السابقين . ورأيت كيف يعتز بها ، ولسان حاله يقول :

وقد تخرج الحاجات يا أم عامر كرائم من ربّ بهن ضنين

ثم ورقة تذكر بزيارتى بيت الشعب فى أنقره وما لقيت هنالك من رجال وآراء وتحف وآثار .

وبطاقة فيها ذكر كتب وآثار رأيتها فى مدينة قونية حينما زرت ضريح جلال الدين الرومى ، ودار المولوية التى صُيّرت اليوم متحفاً . وكم لى فى دار المولوية من وقفات ، وعظات . وكم لها فى النفس من ذكريات .

وصورة صغيرة لرجل كريم رافقته فى طريق من اسكيشهر إلى قونية وسايرته فى قونية ساعات فحفظ الودّ ، وأهدى إلىّ صورته وعلى ظهرها كلمة تعرب عن أخوته وصداقته . وتاريخها ١٣ أيلول سنة ١٩٣٧ ، وقد افترقنا ولم يعلم أحدنا عن صاحبه من بعد شيئاً . ورحم الله حافظا الشيرازى . يقول :

« اغتنم الصحبة فاننا حين نفترق من هذا المنزل ذى الطريقين لا نستطيع أن نلتقى أبداً » .

وكل منازل هذه الحياة ذات طريقين بل طرق . إن افترقت بالمجتمعين لم يكونوا من اللقاء على يقين .